﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحجّ: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قال البقاعيّ: "لمّا وصَفَ نفسَه سبحانه بما يقتضي تمكينَ منصورِه الّذي يَنصُرُهُ، وصَفَهُم بما يُبيِّنُ أنَّ قتالَهم له لا لهم، بعدَ أن وصَفَهم بأنَّهم أوذوا بالإخراج مِنَ الدّيار الّذي يُعادِلُ القتلَ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: (مكن) كلمةٌ واحدةٌ، والتَّمكين هو التَّثبيت[2]، و"التَّمكينُ: إزالةُ المَوانِع، مكَّنَ اللّهُ تعالى العبدَ؛ أيْ: أعطاه آلةً يَقدرُ معها على الفعل"[3]؛ والمعنى المحوريُّ: "رسوخ الشَّيء مُتجمِّعًا من دِقاقٍ في باطنٍ يلتئمُ عليه؛ كبيض الضِّباب والجراد في باطنهما؛ ومنه "المَكِنَة - كفَرِحة: التَّمكُّن (رسوخٌ في باطنٍ)"[4]، و"مكَّنَهُ مِنَ الشّيء، ومكَّنَ له: جَعَلَ له عليه سلطانًا، وقدَّرَه؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: ثبَّتناهم ومنحْناهم الإمكاناتِ ليقيموا دينَ اللّه.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهُما: يدُلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعدَ غيرِه، والأصلُ الآخَرُ: يدُلُّ على ارتفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ[5]، والمعنى المحوريُّ: "لحاقُ غليظٍ بآخر الشّيء أو خَلْفِه يَنغَمِسُ فيه فيمتدُّ معه، كعَقِب القدم، وعقب المَتنَيْن وما ذُكِرَ معهما"[6]، والعاقِبة - مُفردٌ، جمعها: عواقبُ؛ وهي آخِرُ كلِّ شيءٍ وخاتمتُه، والجزاءُ بالخير أو الشَّرِّ[7]؛ وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: 9/ 6361.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (مكن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).
(7) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عقب).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الّذين ينصرُهُم اللّهُ تعالى هم الموفَّقون، الّذين يتحيَّنون الفرصةَ لتوطيد أركان دين الله تعالى، وإقامة حدوده، وأداء فرائضه من صيامٍ وصلاةٍ وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عنِ المُنكَر؛ فإذا واتَتهم الظّروفُ باكروا إلى ذلك دون تأخيرٍ؛ فهؤلاء هُمُ الموعودون بالنَّصر المُبينِ، "ولله تعالى وحدَه عاقبةُ الأمور ومردُّها ومَرجِعُها في الآخرة، فيُجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحِقُّه من ثوابٍ أو عقابٍ"[1].

مَن يَعملون على تـوطـيـد أركـــان الـدّيـن هُـم مَـنْ يـمـنـحُـهُـمُ اللـهُ تعالى النَّصر

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾:

هذا "وصف ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾"[2] من "أصحاب رسول الله ﷺ ومَن تبِعه، ومدحٌ لهم بالدّوام على دين الله تعالى الّذين قبِلوه وأخذوه في حال الخوف، بعد ما مكَّنَ لهم في الأرض، وآمنَهُم من ذلك الخوف الّذي كان في الابتداء، وأخبر أنَّهم داموا على ذلك، ولم يتركوه ما داموا عليه، بل زاد لهم حرصًا على ذلك وجهدًا"[3]، وفُصِلَت جملةُ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عمّا قبلها لتنزُّلها ممّا قبلَها مَنزِلةَ البدل أو البيان والتّفسير؛ وبهذا لا يزالُ الخيطُ الجامعُ لتلك التّراكيب موصولًا؛ حتّى إنَّها لتوضَعُ في النَّفس وضعًا واحدًا، مُتماسِكةً مُتآزِرةً على سَنَن النَّظم القرآنيِّ الكريم.

نصرُ الله تعالى يَتتابَعُ لِمَن يُؤدّون حقَّ التَّمكين مِن إقـامـة شـرائـع الدّين

دلالةُ التّعبير عنِ المُهاجرين بالموصول:

لا يزال النَّظمُ القرآنيُّ للمرَّة الثّالثة على التَّوالي يُؤثِرُ التّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا مِنَ المُهاجرين؛ لِما في ذلك مِنَ الإشادة بأوصافهم الواردة في جملة جواب الشَّرط ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

الاسم الموصول يُهيِّئُ النَّظمَ لِما لا يُهيِّئُه له الاسم الصَّريح

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 319.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 538.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 426.

الّتي هيَّأ لها الموصول، وما عُطِفَ عليها مِن شمائلَ، فتلك سماتُهم يُحدِّدُها القرآن الكريم بدقَّةٍ؛ بحيث يتحدَّدُ الصِّنفُ الموعودُ بنصر اللّه تعالى القويِّ العزيز، ثمّ إنَّ التَّعبيرَ بالاسم الموصول يُطلِقُ الحُكمَ ويُعَمِّمُه؛ ليُدخِلَ فيه كلَّ مَنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفات، ممَّنْ نصرَ دينَ اللّه تعالى، واستثمرَ فرصةَ التَّمكين، فدَعَمَ الدّين وأهله.

نكتة التَّقييد بـ ﴿إن﴾ في جملة ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾:

المؤمن لا يتعلَّقُ بالدُّنيا إذا حصل له التَّمكين

"لمّا كان وقتُ النُّصرة مُبهمًا، وآخِرُه يومُ الفَصل - عبَّرَ بأداة الشَّكِّ ﴿إن﴾؛ ليكونَ ذلك أدلَّ على إخلاصِ المُخلِص في القتال"[1]، وطهارةِ نفسه من كلِّ غرضٍ آخرَ غيرِ نُصرة اللّه تعالى، كذلك توحي ﴿إن﴾ بأنَّ المؤمنين الصّادقين "إذا طالتْ بهم المُدَّةُ، وساعدهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم في استجلاب حظوظهم، ولا في اقتناء محبوبهم مِنَ الدّنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا"[2].

فالقيد بـ ﴿إن﴾ هنا يوجِّهُ هذه الفئة إلى عدم الرّكون إلى الدّنيا؛ لأنّها ليست من صفات أولياء اللّه تعالى الصّالحين.

التَّمكين الكامل ليس شرطًا لإقامة شرائع الدّين

كذلك يوحي القيد بـ ﴿إن﴾ بأنَّ أهلَ الصّلاة والزّكاة والأمر بالمعروف والنّهي عنِ المُنكَرِ، يُقيمون شرائعَ الدّين لأيسر تمكينٍ، ولا يَنتظرون لفعل ذلك حصولَ التّمكين الكامل الّذي يُعبَّرُ عنه بـ(إذا)، بل متى وجدوا الفرصةَ، ومهما كانت يسيرةً فإنَّهم يَتحيَّنونها، ويستثمرونها.

دلالة التَّعبير بمفردة التَّمكين:

أقلُّ تمكينٍ كافٍ في وجوب إقامة الدّين على المؤمنين

التَّمكين أقوى مُفردات اللُّغة دلالةً على الثَّبات والرُّسوخ واستجماع أسباب القدرة على فعل مطلوبه؛ لأنَّها صريحةٌ في سيطرة المُمَكَّن مِنَ المكان الّذي يوجد فيه، وأنَّ أحدًا لا يستطيعُ انتزاعَه منه؛ لذا

(1) البقاعيّ، نظْم الدُّرر: 13/ 59.
(2) القُشيريُّ، لطائف الإشارات: 2/ 549.

كان أقلُّ التَّمكين - المُعلَّق بـ ﴿إن﴾ - الافتراضيّة القائلة بالشَّكِّ والاحتمال - كافيًا في استيجاب إقام الصَّلاة وإيتاء الزّكاة والأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر.

ويتناغمُ عطاءُ ﴿إن﴾ مع عطاء مادَّة التَّمكين على بيان حدود ما يجبُ على المؤمنين اقتناصُه، كما تتضمَّنُ مادّةُ التَّمكين دلائلَ النّصرة، إذ إنَّ التّمكينَ مأخوذٌ مِنَ المكان، ومعنى ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ في الآية: جعلْناه في المكان، وهذا يؤول إلى الاستقرار والبقاء مع قوَّةٍ وقُدرةٍ[1].

براعة التّعبير بالماضي ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾:

لأنّ الدّنيا دارُ ابتلاء؛ فالمؤمنون فيها بين تَزعزُعٍ وتمكينٍ

إذا كانت ﴿إن﴾ تقول بالشّكّ في تمكين الله تعالى لِعباده المؤمنين تمكينًا كاملًا - نظرًا إلى طبيعة الدّنيا، وأنَّها ليسَت بدار قَرارٍ؛ بل دار مِحنٍ وابتلاءٍ - فإنّ صيغةَ الماضي في ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ تبعَثُ التّفاؤلَ في نفوس المسلمين، وتقطَعُ لهم بحصول التَّمكين ما أخذوا بأسبابه، وأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ؛ بل كأنَّه وقَعَ في الماضي وتحقَّقَ فعلًا.

لطيفة إسناد التَّمكين إلى ضمير العَظَمَة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾:

إسنادُ التَّمكين إلى العظيم سبحانه يُثبِّتُ المؤمنين على طريق الجهاد

التَّمكين بهذه الصّيغة القويَّة يحتاج إلى قوَّة قاهرة؛ وعظمة عظيمة تَقْدرُ على تحقيقه؛ لذلك كان المناسبُ إسنادَهُ إلى العظيم ﷻ؛ ولذا آثر النّظم الكريم إسناده إلى نون العظمة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أيْ: حقَّقنا لهم التّمكينَ "بما لنا مِنَ العظمة"[2]، ولا يقوى على ذلك التَّمكين بمعناه الحقيقيِّ إلّا الله تعالى، والتَّمكينُ الحقيقيُّ دليلُ العزَّة والقُدرة والعَظَمَة؛ فكان في إسناده إلى ضمير العَظَمَة من بواعث الثِّقة في حصوله للمؤمنين إذا أخذوا بأسبابه ما يُثبِّتُهم على طريق النَّصر على الظّالمين.

(1) العطويّ، جماليات النَّظم القرآنيِّ، ص: 14.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 59.

نكتة التَّعدية بـ ﴿فِي﴾ دون اللّام:

يمنح الله تعالى مَـــن يَـنـصُـرُه الـــقـــدرةَ على النَّصر والتَّمكُّن

عُدّي فعلُ التّمكين بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ هنا في: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، في حين عُدّي بحرف اللّام في مَواضِعَ أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 56]؛ "قال بعضهم: معناهما واحدٌ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: 6]؛ فجاء باللُّغتين للتَّوسُّع في الكلام، والصَّحيح - كما يقول أبو هلال - أنّ (مكَّنتُ له): جعلت له ما يَتمكَّنُ به، و(مكَّنتُه): أقدرته على مُلك الشَّيء في المكان"[1].

ويجوز أن تشيرَ اللّام إلى معنى التّعليل؛ أي: لأجله، ودلالةُ التّمكين أوضحُ من ذلك وأنسبُ بالسّياق، لِما في اللّام من دلالة الحيازة والمُلك، ويُؤيِّدُ هذا المعنى تحديدَ مكان التَّمكين، بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

دلالة الظّرفيّة في القيد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

دلالـــةُ ظـرفـيّـةِ الأرض على إفادة رسـوخ الأقـدام عليها والتَّمكُّن منها آكدُ

تؤازرُ ظرفيَّةُ القيد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نفوسَ عباد الله تعالى النّاصرين المنصورين، وتُطمئِنُهم بتأكيد التَّمكين من حيثُ إنَّ الظَّرفيَّةَ تُفيدُ رسوخَ أقدامهم على صراط الله تعالى المستقيم، وتُؤكِّدُ لهم إقدارَ الله تعالى إيّاهم على تصريف أحوال البلاد وقيادة العباد حين ينصرون دينَهُ، فصوَّر لهم النَّظمُ الكريمُ أنَّ تمكينَهم سيكون مُتغلغلًا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا (على الأرض)، بما تُشعِرُ به ﴿فِي﴾ من معنى العمق ممّا يزيد معنى التَّمكين رسوخًا؛ يعني: أنَّهم سيتمتّعون بالاستقلال الكامل في إدارة شؤونهم وشؤون أوطانهم، ودلالةُ حرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾ على ذلك آكدُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 479.
(2) العطويّ، جماليات النّظم القرآنيّ، ص: 15.

دلالة (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

المُراد بـ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هنا "جنسها، وقيل: مكّة"[1]؛ وذلك بحسب توجيه اسم الموصول في أوّل الآية الكريمة، فإنْ أُريد به المهاجرون؛ فالمُراد مكّة المُكرّمة، وإنْ أُريد العموم فجنس الأرض لِمَنْ ينصرون الله تعالى فينصرهم، وهو ما رجّحه ابن عطيّة - كما سبق قريبًا، وحتّى لو كان المُرادُ بالأرض مكّةَ المكرّمة، إلّا أنّ ظلال الشّموليّة في اللّفظة تبقى مُشيرةً إلى دلالة السّعة وعِظَم التّمكين.

الأرض كلُّها محلٌّ لِوعد الله تعالى بالتّمكين لِمَن ينصرونه

نكتةُ إيثار الإقامة في الفعل ﴿أَقَامُواْ﴾ دون (صلّوا):

في التّعبير عنِ الصّلاة بالإقامة في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون التّعبير بالفعل الصّريح (صلّوا) تصويرٌ للعبد المُصلّي بِمَنْ يُقيمُ شيئًا ويَنصِبُه ويَعْدِلُه، ولا يَدعه يميل، والمعنى: (حقّقوا معنى الصّلاة والصِّلة باللّه، وأْتوا بها على وجهها المطلوب)، و"كلُّ مَوضِعٍ مدحَ اللّهُ تعالى بِفعل الصّلاة أو حثَّ عليه - ذُكِرَ بلفظ (الإقامة)، ولم يَقُلْ (المصلّين) إلّا في المنافقين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: 4]، وإنّما خصَّ لفظَ (الإقامة) تنبيهًا على أنّ المقصودَ مِن فعلها توفيةُ حقوقِها وشرائطها لا الإتيان بهيئتها فقط؛ ولهذا رويَ أنّ المُصلّينَ كثيرٌ والمُقيمينَ لها قليلٌ"[2].

في التّعبير بإقامة الصّلاة تحقيق لمعناها الحقيقيّ

دلالة التّعبير بالماضي في جملتَي: ﴿أَقَامُواْ﴾ و﴿وَءَاتَوُاْ﴾:

صيغة الماضي تدُلُّ على تحقُّقِ الوقوع؛ ومن ثمّ ففي الآية "إخبارٌ بالغيب عمّا يكون عليه سيرتُهم إنْ مكّن لهم في الأرض وبسطَ لهم في الدّنيا، وكيف يقومون بأمر الدّين[3]، وفضلًا عن ذلك يكون في الإخبار بالماضي هنا وعدٌ مِنَ الله تعالى بتحقيق النّصر والتّمكين

تنفيذ المؤمنين أوامرَ ربِّهم ﷻ فورِيٌّ لا فاصل بينه وبينها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.
(2) حقّي، روح البيان: 6/ 41.
(3) السّيوطيّ، الجامع الصّغير: 1/ 137.

لهم، كما يَحتمِلُ لفظُ الآية الكريمة ما استنبطَه العلماءُ من أنّ الماضي هنا مُستعمَلٌ في معنى الإنشاء، وأنّ اللّهَ تعالى بهذه الآية "أخذَ العهد على مَن مكّنه الله تعالى أنْ يفعل ما رتّبَ على التّمكين في الآية"[1]، ويكون المعنى على أنّه أمرٌ وشرطٌ: إنْ مكّنا لكم في الأرض أقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة، وأْمُروا بالمعروف، وانْهَوا عن المُنكَر.

في التّعبير بالخبر إشادةٌ بالمؤمنين

ولطيفةُ التّعبير بالخبر في مَوضِع الإنشاء هنا الإشادةُ بالمؤمنين؛ وأنّهم قبلَ أن يُؤمَروا يقومون بالفعل، وأنّ تنفيذَهم الأمرَ فوريٌّ لا فاصل بينه وبينه، ثمّ إنّ هذا التّعبيرَ يوحي بأنّ المؤمنين "لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضّالّين الّذين كانت إلى أيديهم القوّةُ والسّلطانُ؛ فتسلَّطوا على عباد الله ﷻ، ورهقوهم، وأخذوهم بالبأساء والضّرّاء، وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ"[2]، ويدُلُّ أيضًا "على أنّ الّذين لا يُقيمون الصّلاة، ولا يُؤتون الزّكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عنِ المُنكَر، ليس لهم وعدٌ مِنَ الله تعالى بالنّصر البتّة"[3].

مَرجِعُ الضّمير في ﴿أَقَامُواْ﴾ وسرُّ إسناد الفعل إليه:

الوحيان الشّريفان مُتناغِمان على تأصيل روح الجماعة في المجتمع المُسلم

واو الجماعة في الأفعال ﴿أَقَامُواْ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ﴾، ﴿وَأَمَرُواْ﴾، ﴿وَنَهَوْاْ﴾ يعود إلى الاسم الموصول ﴿مَن﴾ في جملة ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وإيثاره ضمير جماعة يتّسقُ مع قيمِ الإسلام الّتي تُلحُّ على تأكيد روح الجماعة عمومًا في حياة المسلمين، والعمل على توحيد سلوك المجتمع وأفراده، ومعلوم أنّ الصّلاةَ واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ، وأنّها لا تسقُطُ عن أحدٍ إلّا بالغيبوبة عن هذه الحياة، وأنَّ كلَّ مُستطيعٍ في ذلك الفرض بحسبه قائمًا أو قاعدًا أو مُضَّجعًا، أو حتّى بعينيه وعقله، وتواترَتِ السُّنَّةُ على ضرورة إقامة الجماعة في مُجتمعات المسلمين، وأغرَتهم بالأجر

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 518.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1047.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 252.

العميم، وحذَّرَتِ المُتكاسِلين من خسارة التَّخلُّف عنِ الجماعات؛ لذلك أُسند الفعل (أقام) إلى (واو الجماعة)، وما تلاه من أفعال.

لطيفة التّعبير بالصّلاة:

المُهمّةُ العُظمى للصّلاة تحقيق معاني الصِّلة بين العبد المسكين والرَّبّ الرَّحيم

التّعبير بالصّلاة في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَلفِتُ إلى غايةِ تلك العبادة، من إقامة العبد الصِّلةَ بينه وبين الخالق الرّازق سبحانه وتعالى، تلك الصّلة المبنيَّة على التّركيز في تحقيق أهداف تلك العبادة، وذلك بتوفير الخشوع والتَّدبُّر لِما يُقالُ ويُفعَلُ فيها، والتَّفكُّر في الحِكم الغزيرة وراء حركاتها وسكناتها، واستحضار معاني قول الله تعالى: "حمِدني عبدي"[1] حين يقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، وقوله ﷺ: "أثنى عليَّ عبدي" حين يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: 3] ... إلى آخره، وهكذا إلى آخر الصّلاة؛ فتتحقَّقُ الصِّلةُ كما أرادها الرَّحمن الرَّحيم سبحانه وتعالى.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

أحبُّ الصّلاة إلى الله تعالى المفروضة وكلُّها بعد ذلك حبيبٌ

نَصَّ بعضُ العلماء على أنّ المقصودَ بـ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ "المَكْتوبَة"[2]؛ ولعلَّهم أخذوا ذلك من ضرورة التّهيئة لصلاة الفريضة دون غيرها بإلقاء صيغة الإقامة بين يديها، وفعلُها مذكورٌ في جملة ﴿أَقَامُواْ﴾؛ وعلى ذلك تكون (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهد، غير أنّه لا يوجدُ ما يمنَعُ حملَ (أل) فيها على الجنس؛ فتدخل النّافلةُ مع الفريضة، ويكون دعوةً إلى إتقان الصّلاة وإحسان طهورها، وخشوعها... الخ، وإذا افترضْنا دخولَ النّوافل ضمن الصّلاة المقصودة هنا فهي أيضًا ممّا يُحبُّه اللهُ، كما في الحديث: "وما يَزالُ عَبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ"[3].

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتابُ الصَّلاة: 1/ 296، الحديث رقم: (395).
(2) السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 60.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، كتاب الرِّقاقِ، الحديث رقم: (6502).

علّة العطف ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

إيتاءُ الزّكاة دليلُ صدقِ الإيمان وعُمقِ اليقين بما عند الله تعالى

عُطِفَتْ جُملة ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على جملة ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لبيان اشتراكهما في حُكم جواب ﴿إن﴾، وأنَّهما قرينتان مُهمَّتان في تهذيب الأخلاق وهذا عمل الصّلاة، وتحقيق التّوازن الاقتصاديّ في المجتمع المُسلم وذلك عمل الزّكاة.

والعطف كذلك يُقرِّرُ أنَّ المؤمنين الصّادقين يَشْفعون إقامَة الصّلاة بإيتاء الزّكاة، إنْ حَصَلَ لهم التّمكينُ في الأرض؛ برهانًا على صدق الإيمان، وعُمق اليقين بما عند الله تعالى.

وقد جمعَت آياتُ الذِّكْر الحكيم بين الصّلاة والزّكاة في أكثر من ثمانين مَوضِعًا، ممّا يدُلُّ على أهمّيَّة إيتاء الزّكاة في ترجمة الإيمان النَّظريِّ إلى واقعٍ عمليٍّ عظيمٍ.

براعة التّعبير بالإيتاء ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

على الأغنياء أن يحملوا الزّكاة ويوصِلوها بأنفسهم إلى مُستحقّيها

عبَّرَ النّظمُ الكريمُ عنِ الإعطاء بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ إذِ المعنى: أعطوا أو أدّوا الزّكاة؛ لأنّ الإيتاءَ فيه معنى الإيصال لا مُجرَّدَ الإعطاء؛ فالمطلوب مِنَ الأغنياء أن يحمِلوا الزّكاةَ، ويوصِلوها بأنفسهم إلى مُستحقّيها، وألّا يُلجِئوهم إلى الحضور بأنفسهم لِتسلُّمِها من بيوتهم تكريمًا للفقراء.

أمّا التّعبيرُ بالإعطاء فيخلو من هذه اللّفتةِ الرّاقية الرّحيمة، الّتي تَصونُ ماءَ الوجوه مِنَ الإهدار، كما تحتاطُ لنفس الغَنيِّ مِنَ الاستكبار.

براعةُ إسنادِ الإيتاءِ إلى واو الجماعة:

لم يَحرِمِ اللهُ تعالى فقراءَ المسلمين من فضيلة إيتاء الزّكاة

سبق القول إنّ ضميرَ الجماعة في فعل: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قاطعٌ بوجوب إقامة الصّلاة على كلِّ مُسلم جماعةً أو مُنفرِدًا، وأنَّها لا تسقُطُ عنه إلّا بالدّخول في غيبوبة الموت، لكنَّ أمرَ الزّكاة مُختلِفٌ؛ لأنّها لا تُفرَضُ إلّا على المُستطيع وبشروطها، ومع ذلك يأتي الفعلُ

في ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مُسنَدًا إلى ضمير الجماعة؛ فلا بدَّ وراء ذلك من إشاراتٍ، ثمّ إنّ ضميرَ الجماعة في ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَستُرُ الفُقراءَ في الأغنياء، ويُشرِكُهم معهم في عُموم الفضل الرَّبّانيِّ العظيم.

معنى (أل) في ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

مصطلحُ الزّكاة خاصٌّ بالمفروضة والصّدقاتُ عامٌّ لها ولغيرها

تعريف ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بـ (أل) يوجِّهُ دلالتَها بها نحو المفروضة من زكاة المال، والزّروع، والثّمار، والأنعام... الخ؛ وهي الّتي يُثاب مُؤتيها، ويُعاقَبُ تاركُها، فتلك الّتي اختُصَّت باسم الزّكاة، والزَّكاة تُشارِكُ غيرَها من وجوه البِرّ في مصطلح الصَّدقات، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التّوبة: 60]، فاسمُ الزّكاةِ خاصٌّ بالمفروضة، واسمُ الصّدقات عامٌّ لها ولغيرها.

سرُّ التّعبير بمفردة ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

إلمـــاحٌ إلى ما يترتَّبُ على أدائها من تحقيق طُهر مال الغنيِّ وما يَحُلُّ به مِن بَرَكَةٍ

في اصطفاء اسم ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لذلك القَدْرِ المُحدَّدِ من حقوق الفقراء في أموال الأغنياء إلماحٌ إلى ما يترتَّبُ على أدائها من تحقيق طُهر مال الغنيِّ، وما يَحُلُّ به مِن بَرَكَةٍ، وما يحصُلُ في نفس المُزَكّي وأهله، وماله الّذي يُخرِجُ زكاتَهُ من خير، وأنَّ إخراجَ هذا القدر مِنَ المال - وإنْ كان ظاهرُهُ الإنقاصَ منه - فإنَّه يزيدُ وينمو ويُبارَكُ، وقد شبَّهوا ذلك بما يُؤخَذُ من شَعر الإنسان عند الحلاقة، وما يُؤخَذُ من جريد النَّخل عند التَّقليم؛ فكلاهما يُزينُ المأخوذَ منه ويُنمّيه ولا يضُرُّ به.

علّةُ عطف جملة ﴿وَأَمَرُواْ﴾:

الأمـر بالمَعروف والنَّهي عن المُنْكَر واجبان وكلُّ آمرٍ وناهٍ بِحَسبه

عُطِفَت جملةُ ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ على جملة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لِمشاركتها في حُكم جواب الشَّرط ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾، وهذا العطفُ قائلٌ: "إنّ الأمرَ بالمَعروف والنَّهيَ عنِ المُنكَرِ واجبان كوجوب الصَّلاة والزَّكاة"[1]، ولكن في حدود الإمكانات، والأمر بالمعروف هو الدّليلُ

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 431.

الثّالثُ على صِدق الإيمان وقوّة اليقين بعد الفريضتَيْن السّابقتيْن: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنّ أُمَّةً تخلو مِن التَّناصُح بالأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر لا قوَّةَ لها ولا بركةَ فيها، وقد لُعِنَ الّذين كفروا من بني إسرائيلَ لأمورٍ عدّة، منها: أنّهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: 79].

دلالةُ مُفردةِ الأمرِ:

قـــوَّةُ الأُمَّـــة مرهونةٌ بتحقيق فريضتي الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر

التّعبيرُ بمُفردة (الأمر) في جملة ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ صريحٌ في عدم الصَّدْع بالحقِّ وعدم الموارَبة فيه، لِما في مُفردة (الأمر) من تحقُّق الدّلالة على القوّةِ في مواجهة الباطل، وعدم مهابة المأمور والمَنهيّ، وعدم المُهادَنة في إحقاق الحقِّ، وبمقدار ما يَغيبُ مِنَ الأمر بالمعروف يكون اختلالُ الأمّةِ وتخلُّفُها، وربَّما اندثارها تحت أقدام الأمم؛ لأنَّ مَنْ يأمرون بالمعروف ويَنهون عنِ المُنكَر، "يُصلِحون بهذا من سلوك النّاس، ويُقيمون لهم طرقَهم مُستقيمةً؛ فلا تَتصادَمُ منازعُهم، ولا تَفسُدُ مَشاربُهم"[1].

سِرُّ صياغة الأمر ﴿وَأَمَرُواْ﴾ ﴿وَنَهَوْاْ﴾ ماضيًا:

المؤمنون يُبكِّرون بتنفيذ واجباتهم فورَ تمكُّنِهم من ذلك

في صياغة الأمر والنَّهي ﴿وَأَمَرُواْ﴾، ﴿وَنَهَوْاْ﴾ ماضيَين إشارةٌ إلى وجوب تحقيقهما في الأمّة وعدم تعطيلهما، وذلك نفسه يُقالُ في صياغة الأفعال ﴿أَقَامُواْ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ﴾، وإلّا لكانَتِ الصّياغةُ مضارعةً هكذا: (الّذين إنْ مكَّنّاهم ..، يُقيمون الصّلاة...، ويُؤتون...، ويأمرون...، وينهون...)، كذلك في صيغة المُضي إيحاءٌ بسرعة استجابتهم وتنفيذهم لتلك الفرائض متى تمكَّنوا من تنفيذها، وكذلك كأنَّ صيغةَ الماضي فيها جميعًا تَحضُّهم على فوريَّة تحقيقها لحظةَ التَّمكين، وأنَّها لِسرعةِ تحقيقها تكون كالماضي الّذي مضى سريعًا دون أن يستغرق وقتًا يُلحَظُ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1047.

لطيفة إسناد الأمر بالمعروف إلى واو الجماعة:

يَختَلُّ المجتمعُ بِقدر ما يَسكُتُ على مُخالَفات العصاة

في إسناد الأمر بالمعروف إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ دليلٌ على صلاح المجتمع كلِّه، وأنّ أفرادَهُ وجماعاتِه يَتناصحون، ولا يرى بعضُهُم بعضًا على معصية فيَصمتُ عنه، أو يُقرُّهُ عليها، هذا هو منهج المجتمع المؤمن كما توجِّهُه إليه واو الجماعة هنا، وتوحي إلى ذلك بأنَّ هذا المجتمعَ جديرٌ بالنّصر والتّمكين، وإلّا اختلَّ المجتمعُ بِقدر ما يَسكُتُ أفرادُهُ وجماعاتُهُ على معاصي العُصاة، وبقدرِ ما يُقِرّون بعضَهم بعضًا عليه من مُخالفات الدّين والأخلاق والآداب.

معنى الباء في القيد ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

بالمعروف تتسبَّبُ أسبابُ الخير وتتحقَّقُ

معنى (الباء) في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ باء الاستعانة والسّببيَّة؛ أي: أمَروا غيرهم بالحقِّ والهُدى والصَّواب مُستعينين بالمعروف، مُتسبِّبين به إلى تقويم مَن يُخطئ من أفراد المجتمع ومؤسَّساته.

علَّةُ التّعريف في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

المعروفُ والمُنكَرُ يَعُمّانِ الإيمانَ والكفرَ فما دونهما

تعريف كلمة ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يدُلُّ على كونه (المعروف) المُتعارَف على خيريَّته وحُسنه في تعاليم الدّين الحقِّ، وقيم أهل العلم والصَّلاح؛ فتعريفه العهد، وإلّا فأنواع المعروف تختلفُ مِنه لدى أهل الكفر والضَّلال عنه لدى أهل الحقِّ والرَّشاد؛ لذلك كان تعريفُ لفظ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ هنا متَّجِهًا به إلى ما تعارفَهُ الشّرعُ الحنيفُ، ورسّخَته نصوصُ القرآن الكريم والسُّنَّة الشّريفة، وما تعارفَهُ أهلُ الحقِّ مِنَ الآداب والأخلاق السّامية؛ فـ"المعروف اسمٌ لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ بالعقل والشَّرع حُسنُه"[1]، وقال ابن عطيَّة: "المعروفُ والمُنكَرُ يَعُمّانِ الإيمانَ والكفرَ فما دونهما"[2].

(1) حقّي، روح البيان: 6/ 41.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.

لطيفة صياغة ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ اسم مفعول:

صيغة اسم المفعول في (المعروف) تدُلُّ على أنّه قد صار محلَّ اتّفاقٍ في الأمَّة، و"لَن تَجتَمِعَ أُمَّتي على الضَّلالَةِ أبَدًا"[1]، كما قال الرّسول ﷺ ؛ فصيغة المفعول توحي باجتماعهم عليه، وإقرارهم إيّاه ورضاهم به، مُلتَمِسين إيّاه من قيم الشّرع الحنيف، واللّه تعالى لا يأمرُ إلّا بخيرٍ.

المعروفُ يُلتمَسُ من قيم الدّين؛ فهو مَحلُّ اتّفاق ذوي النّفوس المُستقيمة

نكتة حذف المفعول في ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

المفعول في جملة ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ محذوفٌ، وتقديره: أمَروا أنفسَهم أو غيرهم، أو المُقصِّرين منهم بالمعروف؛ ونُكتة حذفه توفيرُ العناية على هذا القيد ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ لا على المفعول، وما داموا جميعًا ﴿وَأَمَرُواْ﴾ فلا بُدّ أنَّهم جميعًا مأمورون، فهم مُتناصحون، يَنصَحُ بعضُهم بعضًا، ويأخُذُ بعضُهم بأيدي بعضٍ، وهذا هو المُجتمَعُ المِثالُ، الجديرُ بنصر اللّه تعالى وتمكينه.

المجتمع الجدير بنصر الله تعالى وتمكينه الّذي يَنصَحُ بعضُه بعضًا

معنى الواو في جملة ﴿وَنَهَوۡاْ﴾:

عُطِفَت جملةُ ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ على ما قبلَها؛ لدخول الجميع في حَيّز جواب: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾؛ فبمجموع تلك الخلائق ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾، يصيرُ بها المجتمعُ المُسلمُ في غاية الشَّرف والفضيلة، وفي أوج العِزَّة والمَنَعَة، ويصبحُ النَّموذجَ الجديرَ بالنَّصر والتَّمكين، وبقدر ما يُنتقَصُ من تلك الخلائق يكون انحدارهُ وانحطاطهُ بين الأمم، وذلك ما لا يليقُ بأُمَّة الإسلام الّتي هي خيرُ أمَّةٍ أُخرِجَت للنّاس.

يُشرَّفُ المسلمون ويُعزَّون بمقدار تنفيذهم تلك الخلائقَ

دلالة تقييد النَّهي بـ ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾:

تنوَّعَت تآويلُ العلماء في بيان المقصود بـ﴿ٱلۡمُنكَرِۗ﴾؛ فمنهم مَن

(1) الطّبرانيّ، المعجم الكبير، بابُ مَن اسمُهُ عُمَرُ، عَمرو بنُ دينارٍ، عن ابنِ عُمَرَ: 12/ 447، الحديث رقم: (13623).

قال إنَّه الشِّرْك[1]، ومنهم مَن قال "هو ما يستقبحُهُ أهلُ العلم والعقل السّليم"[2]، ومنهم مَن رأى أنّ الأولى التّعميمُ[3]؛ وعلى كلٍّ فتقييد النَّهي بالجارِّ والمجرور ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ دليلٌ على اتِّزان المجتمع المسلم، وأمارةُ رُقيِّ أفراده ومؤسَّساته؛ فلا يسكُتُ أحدٌ فيه عن معصية يرتكبُها أخوه، ولا يُقِرُّ أحدًا على انحراف في قولٍ أو فعلٍ؛ بل يتصدَّى الجميعُ لأخطاء الجميع، مُتَّخِذًا الحُسنى وسيلةً، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96].

دليلٌ على اتِّزان المجتمع المسلم وأمارةُ رُقيِّ أفراده ومؤسَّساته

بلاغة المقابلة بين ﴿وَأَمَرُواْ﴾ و﴿وَنَهَوْاْ﴾:

الجمع بين الجملتيْن المُتضادّتَي المعاني ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ و﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يَمنَحُ الأسلوبَ حيويّةً، ويَعكِسُ ما في هذا المجتمع الآمر بالمعروف النّاهي عنِ المُنكَرِ من يقظةٍ لِما يَقَعُ فيه مِن مُخالَفاتٍ؛ فيُصوِّبُها ويُقوِّمُ المُعوجّين، ولمّا كان التَّقابُلُ بين المعاني قائمًا على عُنصر التَّضادِّ كان مِن طبيعته إيقاظُ المُتلقّي إلى تلك المعاني المُتقابِلة؛ ممّا يدعوه إلى احتضان أنوارِها، والتزامِ تنفيذِها ما أمكنه ذلك.

الجمع بين المعاني المُتضادَّةِ يوقِظُ المتلقّي إلى تدبُّرها والتَّفاعل معها

براعة ترتيب الأفعال في الآية:

في ترتيب جُمَل جواب الشّرط ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بيانٌ للأولويّات الواجِبِ تنفيذُها في المجتمع المؤمن الجدير بنصر الله تعالى وتمكينه، وتأخير الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر عن إقام الصَّلاة يوحي بأنَّهما ثمرةٌ من ثمراتها، ويضبطُهما بضوابطها؛ فالصَّلاةُ عمادُ الدّين، ثمّ تأتي الزّكاةُ دليلًا على صدق الإيمان؛ لأنَّها إنفاقٌ للمال وبذلٌ بِحُبٍّ،

الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَرِ من ثمار الصّلاة والزّكاة

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 462.
(2) حقّي، روح البيان: 6/ 41.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.

وبها قوامُ المُجتمعِ بطبقتيْه: فقراء وأغنياء، ثمّ يأتي التَّناصُحُ أمرًا بمعروف أو نهيًا عن مُنكَرٍ، وبهما استقامةُ الأُمَّة، وضمانُ سلامتها مِنَ الاختلال، وهذا التّرتيبُ إلى ذلك دليلٌ على "وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر؛ إذ قُرِنا بالصَّلاة والزَّكاة"[1].

معنى الواو في جملة الفاصلة:

وعدُ اللهِ تعالى بإظهار أوليائِهِ وإعلاءِ كلمتِهم

في جملة الفاصلة ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ "تأكيدٌ لِما وعَدَه اللّهُ تعالى من إظهار أوليائه، وإعلاء كلمتهم"[2]، والواو في هذه الجملة استئنافيّةٌ أو عاطفةٌ[3]، أو واو الحال؛ أيْ: والحال أنَّ ثمرةَ النَّصر والتَّمكين - وهي تنفيذ الصَّلاة والزَّكاة والأمر والنَّهي - لن تَضيعَ سُدًى؛ فإنَّ اللّهَ تعالى وعَدَ عبادَهُ هؤلاء بمزيدٍ مِنَ النَّصر، وأنّه سيمدُّهُم بأسباب التَّمكين تَتْرَى، وقد أخذوا بما أتاح لهم منها بموجب ﴿إِن﴾ القائلة بِالشَّكِّ والاحتمال في جملة: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟﴾، وبذلك يتَّضِحُ الخيطُ الدّقيقُ الجامعُ بين الآية وفاصلتها.

نكتة تقديم الخبر ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾:

عاقبةُ إقامةِ المؤمنين أركانَ الدّين مزيدٌ مِنَ النَّصر والتَّمكين

تدُلُّ جملةُ الفاصلة ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ على أنَّ الله تعالى "يُبطِلُ كلَّ مُلكٍ سوى مُلكه؛ فتصير الأمورُ إليه بلا مُنازِعٍ ومُدَّعٍ"[4]، وفيها "إشارةٌ إلى نفاذ قدرته تعالى، وأنَّها بالغةٌ الغاية الَّتي قدَّرَها سبحانه لها في هذا المَقام وهي نصرُ المؤمنين، وخذلانُ المشركين والضّالّين، فعاقبةُ تلك الأمور هي ثمراتُها الطّيّبةُ؛ إذ كانَتِ الأمورُ كلُّها تجري بأمر الله تعالى، فإذا بلغَتْ غايتَها كانت خيرًا، وكانت كمالًا وحُسْنًا"[5].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 274.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 161.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 440.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 274.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1048.

وتقديم الخبر - الجارّ والمجرور - ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يُفيدُ القَصرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ؛ إذْ لا عاقبةَ إلّا له، ولا مَصيرَ إلّا إليه سبحانه وتعالى.

التّنويهُ بحُسن مآل المؤمنين المتَّصفين بتلك الصِّفات

وفي ذلك تنويهٌ بِحسن مآل مَن ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وأنّ عاقبةَ ذلك منهم ستُحمَدُ، وثمرة جهاد النَّفس وجهاد الغير هذا ستكون مزيدًا مِنَ النَّصر والتَّمكين في الدُّنيا، والرِّضوان والجنان في الآخرة.

سِرُّ إضافة العاقبة إلى الله تعالى:

العاقبة لله تعالى في الآخرة ولِنصر أوليائه وقَهرِ أعدائه في الدّنيا

إضافةُ العاقبة إلى اللّه تعالى "يحتمِلُ أن يكونَ المعنى: ترجِعُ إليه الأمورُ في الآخرة، كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج: 76]، وجائزٌ أن تكونَ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لأوليائه مِنَ النّصر والقَهر على أعدائه، فالمُراد بالإضافة إليه: أولياؤه؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]؛ أيْ: إنْ تنصروا أولياءَه أو تنصروا دينَه ينصرْكُم"[1]، كذلك يُفهَمُ من تلك الإضافة "توعُّدُ المُخالِفِ عن هذه الأوامر الّتي تقتضيها الآيةُ لِمَن مُكِّنَ"[2]، وقال أبو السُّعود: "وفيه تأكيدٌ للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته"[3].

دلالة التَّعبير بالعاقبة:

العِبرةُ في جهاد الدّنيا بِثمرة الثّمرة

في التّعبير بمُفردة العاقبة لَفتٌ إلى ثمرة الثّمرة ونهاية النّهاية، وأنَّ الغايةَ إنَّما تتعلَّقُ بها، والمآلَ والمُستقرَّ سيكون هنالك، وأنّ تلك الأفعال ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ... مُقدِّماتٌ وأُسُس ليست غايةً في ذاتها، وأنّها وسائلُ لغايةٍ أبعدَ وأهمَّ بالنّسبة إلى العبد المُلتَزِم بها، و"ذِكرُهُ للعاقبة وطَيُّهُ للبادِئَة مُنَبِّهٌ على أنّه تعالى

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 426.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 109.

يَجعَلُ للشّيطان - كما هو المُشاهَدُ في الأغلب - حظًّا في البادِئَة؛ ليتَبيَّنَ الصّادقَ مِنَ الكاذبِ، والمُزَلزَلَ مِنَ الثّابت، وأمّا العاقبةُ فهي مُتمحِّضةٌ له إلى أن يكونَ آخرُ ذلك القيامةَ الّتي لا يكونُ لأحدٍ فيها أمرٌ حتّى إنَّه لا يَنطِقُ أحدٌ إلّا بإذنٍ خاصٍّ"[1].

نكتة تعريف العاقبة بالإضافة دون (أل):

العِبرةُ بعواقب الأمور سواءٌ في الدّنيا والآخرة

في تعريف العاقبة بالإضافة إلى الأمور ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ دون (أل) - كما لو قيل في غير القرآن الكريم: ولله العاقبة تأكيدُ أنّ أمورَ المؤمنين المُطيعين لمَنْ بيده ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ - سَتُسفِرُ قطعًا عنِ النّتيجة المُثلى، وستؤدّي بهم إلى الثّمرة الحلوة، وأنّ غايةَ غاياتِهم في الدّنيا هي النّصرُ والتّمكينُ، وفي المقابل ستكون عاقبةُ الكافرين في الدّنيا الهزيمةَ والخذلانَ، وفي الآخرة الجحيمَ والخُسرانَ؛ ففي التّعريف بالإضافة إذن دعوةُ المؤمنين إلى إحسان الصّلاة والزّكاة والأمر والنّهي، وابتغاء ثمارها الأخرويّة الآجلة، فضلًا عنِ الدّنيويّة العاجلة، كما أنّ فيها تحذيرًا للكافرين مِنَ الخذلان والخسران.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّمكين والإقدار والتّسليط:

التّمكينُ: منحُ القُدرة مع الإمكانات، والإقدارُ: منحُ القُدرة مُطلَقًا، والتّسليطُ: القَهرُ

"التّمكين: إعطاءُ ما يصِحُّ به الفعلُ كائنًا ما كان مِنَ الآلات والعُدد والقوى، والإقدارُ: إعطاءُ القُدرة، وذلك أنّ الّذي له قُدرةٌ على الكتابة تتعذَّرُ عليه إذا لم يكُنْ له آلةٌ للكتابة، ويتمكَّنُ منها إذا حضرَتِ الآلةُ، والقدرةُ ضدُّ العَجز، والتَّمكُّنُ ضِدُّ التَّعذُّر"[2]، و"التّسليطُ: القهرُ، والأخذُ بالغَلَبَة"[3]، والإرسالُ على الشّيء، يُقالُ: "سلَّطَهُ اللّهُ تعالى عليه؛ أيْ: أرسلَه، قال الله تعالى: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 60.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 142.
(3) ابن بطّال، النّظم المُستعذَب: 2/ 207.

عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 90]"[1]؛ فآثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردة التّمكين لدلالتها على معنى الإقدار وزيادة.

العاقبة والخاتمة والنّهاية:

العاقبةُ: النّتيجةُ، والخاتمةُ: آخرُ الشّيء، والنّهايةُ: المُنقطَعُ

"العاقبة: ما يؤدّي إليها السَّببُ المُقدَّم، وليس كذلك الآخرة؛ لأنَّه كان يمكن أن تجعلَ هي الأولى في العدة"[2]، و"الخاتمة والخِتام من كلِّ شيءٍ: آخرُهُ"[3]، والنّهاية: "منقطَع الشّيءِ؛ فقيل: هو نهايته؛ أيْ: منتهاه، وخلافُ المُنتهَى: المُبتدأ، فكما أنّ قولَك: المُبتدَأ يقتضي ابتداءَ فعلٍ من جهة اللّفظ، وقد انتهى الشّيءُ إذا بَلَغَ مَبلغًا لا يُزادُ عليه"[4]، فعبَّرَ الذِّكْرُ الحكيمُ بالعاقبة لدلالتها على معاني الخاتمة والنّهاية وزيادة الثّمرة الأخيرة للأمور.

(1) الحميريّ، شمس العلوم: 5/ 3186.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 551.
(3) أحمد رضا، معجم متن اللّغة: (ختم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 5.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»